

نفاق المخلص

الاستاذ ثروت أباطه

—><—

رجل أصابه الدهر بشكبات تصيب إحداها الشديد فتصرعه ، غير أنه كان أقوى من الشدة فتبت ، وصرت به الوعاز لم تصب منه مكسراً ، ولم تعصف له عوداً ، ولكن نفسه ضمعت دون أن يمر بها الخطب ولا يؤثر فيها .. فأنعمت بها العقدة ، وكره أن يرى السعادة ؛ فخصص حياته الباقية لحرب الخير ، ومناهضة الرفاهة ، وتدعيم الشر ، ومباركة الشقاء .

عرفته وهو يستقبل المصائب ، وكان إذ ذاك لا يفرح لفرح الناس ، ولكنه كان أيضاً لا يفرح لحزنهم . ثم شهدته والمصائب تعتوره من كل جانب حتى لم يعد فيه مكان لإصابة ، فصار إلى ما هو عليه .

ولنا صديق رأى سعادته وسمى إليها ، فسارع إليه الرجل ذو العقدة يثنيه عما يروم ، بأذلا في سبيل ذلك ما شاء من خسة وكذب . وكان الصديق يعرف في الرجل عقده وخسته ، ولكنه لم يفكر يوماً أن نصيبه هو هذه الخسة وهو الذي يبذل له الود الصادق والعطف الكريم .. وظل يحسن به الظن حتى انكشف له لؤمه وكذبه ، فرمى بقوله عرض الأفق ، وأنتم ما كان مقدماً عليه ، وكفأ الرجل ذو العقدة على سرجه غطاء من ود ظاهر . ظننت أن صديق سوف يشيح عنه بحبه وعطفه ، وأنا أعلم فيه صدقاً في وده ، فلا يمنحه إلا صادراً عن قلبه . ولكن الصديق أخط ظني ، وراح يظهر للرجل مثل ما كان يظهر ، حتى احتسبت الله في صفاته ، واعتقدت أن الحياة علمته خداعاً كان يجمله ، ولكنني لم أطق أن أودع فيه خللاً سميتها له زمناً قبل أن أسأله :

— أراك ما تزال تحبه ، وهو الذي فعل ما فعل . وأعرفك لا تبذل حبك من لسانك !
— إن ما فعل لا يعرفه إلا أنا وهو وأنت . فإذا تغيرت عليه ظهر ما لا أحب إظهاره .

— وتناقى ! ؟

— وما ذا في ذلك ! ؟

— كافي أكلهم شخصاً لا يعرفه . . . ألا نعرف ما ذا في النفاق ؟ .. فيه أنه نفاق . خداع وكذب ، وإجراء نفسك على غير ما تحب ، وظهورك بغير ما تطعن .

— لعل دهشتي من كلامك أكبر من دهشتك . إن ما تقوله لفظ أنيق تخلي عنه منطقك الواقعي . . . إن النفاق شر إذا هدف إلى الشر ، أما إذا حدث إليه عواطف الخير فهو خير هادف إلى خير .. أما اعتقادك أني أجرى نفسي على غير طبيعتها ، فإني صرتاح إلى ذلك ما دمت لا أحمل في نفسي غضاظة الشر .

— وكيف أعرف نفاقك من إخلاصك ما دمت هكذا ؟
كيف ينسني لي أن أميز بين ودك خالص وبين ودك مشوباً ؟
— ودعني أسميه نفاقاً مهما يكن هادفاً إلى خير — كيف يمكن ذلك ما دمت تقدم على الإخلاص وغيره بهذا السمعت البريء الذي عرفت به ؟

— إن مقياسك في ذلك هو نفسك .. فإن كنت تضمر لي الشر وتبديه حتى أحسه منك ، ثم تراني بعد هذا أقدم لك من الود ما عودتك فأنا معك منافق ، أبقى على احترام الناس لك ، وأخشى عليك قائلهم ، راجياً منك الخير بمداشر ، والوفاء بعد القدر .

— أولاً تعتقد أن الرجل شاعر بأنك تبدي له هذا الود عن غير إخلاص .. هل بلغ به الجود حداً لا يعرف به أنه أساء إليك وأنت تحسن إليه ! ؟

— لا .. بل إن الرجل يعلم علم اليقين أن هذا الود الذي أبدية له أصبح رداً غير حقيقي ، ويعلم أيضاً أنني أذكر له كل الشر الذي قدم .

— أولاً تعتقد أن سلتك إياه تؤله أكثر من قطيمنتك له ؟
— ربما جال هذا بنفسه إن كان بها بقية من ضمير ، ولكنه من الذكاء بحيث يعلم أنني أقبل ما أقبل لأبقى عليه الستار الذي أسدله أمام الناس . . . أما إذا كان ضميره قد أنجلي عنه ، فهو مسرور بما أقبل ، صرتاح إليه ، مقبل عليه كما كان يقبل .

وهكذا لم أودع في الصديق ما عرفت له من الخير ، بل استقبلت منه تمرساً بالحياة ، وبجارية لها ، ونحويلاً من شرها إلى خير ، ومن نفاقها إلى إخلاص . . . إنه بنافق لا شك ، ولكنه نفاق المخلص .

ثروت أباطه